القدس مسؤولية جيل

الدكتور شوقي أبو خليل

الحروب الصليبية

أسبابها ، أحداثها ، نهايتها



www.fikr.com
دار الفكر
آفاق معرفة متجددة

الحروب الصليبية: أسبابها، أحداثها، نهايتها/ شوقي أبو خليل.- دمشـــق: دار الفكر- ٢٠٠٩ .- ٦٤ ص؛ ١٧ سم.
١- ٩٥٦,٠٥٤٥ خ ل ي ح ٢- العنوان ٣- أبو خليل

مكتبة الأسد

الدكتور شوقي أبو خليل

الحروب الصَّليبيَّة

اسبابها، احداثها، نهايتها





دار الفكر - دمشق - البرامكة

٠٠٩٦٣ ٩٤٧ ٩٧ ٣٠٠١

٠٠٩٦٣ ١١ ٣٠٠١

http://www.fikr.com/
e-mail:fikr@fikr.net

الحروب الصليبية

أسبابها، أحداثها، نهايتها

د. شوقي أبو خليل

الرقم الاصطلاحي: ٢٢٠٤.٠١٣

الرقم الدولي: ISBN: 978-9933-10-090-2

التصنيف الموضوعي: ٩٥٦ (تاريخ العرب والإسلام)

٦٤ ص، ١٢ × ١٧ سم

الطبعة الأولى: ١٤٣٠هـ = ٢٠٠٩م

المحتوى

مقدمة

بسم الله، والحمد لله، والصَّلاة والسَّلام على سيِّدنا رسول الله، وعلى آله وأصحابه ومن والاه، وبعد..

فإنَّ اختصار تاريخ قرنَيْن من الزَّمان، أحداثهما هامَّة ومترابطة ومتداخلة؛ أمر من الصُّعوبة بمكان؛ فقد بدأت الحروب الصَّليبيَّة بنداء البابا أوربان الثَّاني في مدينة كليرمونت في ٢٦ تشرين الثَّاني (نوفمبر) عام ١٠٩٥م، واحتُلَّت القدس في ١٥ تموز (يوليو) ١٠٩٩م، وتتالت الأحداث من تحرير القدس، ومدن بلاد الشَّام السَّاحليَّة، إلى أن تمَّ تحرير عكا على يد الأشرف خليل بن قلاوون في ١٧ جمادى الأولى ٦٩٠هـ/ ١٨ أيَّار (مايو) ١٢٩١م، فكانت نهاية الحروب الصَّليبيَّة.

وما أشبه اليوم بالبارحة، نهاية محقَّقة لابُدَّ منها، فالجسم الغريب في كيان سليم متناسق منسجم لابُدَّ أن

يُلْفَظ، وكان لفظ الصَّليبيِّين الأُوربيِّين من بلادنا بعد وحدة الصَّف، وائتلاف الكلمة، وبعد أن أَذكى نور الدِّين وصلاح الدِّين وقُطُز وبيبرس وقلاوون العقيدة في النُّفوس، فكان التَّحرير مع سلامة البنية الدَّاخليَّة، عدلاً وعلماً وأمناً ورعاية اجتماعيَّة وصحيَّة، حتى لا تخلو بلد؛ من حلب والموصل شمالاً، إلى الإِسكندريَّة والقاهرة جنوباً، مروراً بحماة وحمص ودمشق والقدس، من المدارس والجامعات والمشافي (البيمارستانات) الَّتي يعود بناؤها إلى زمن الدَّولة النُّوريَّة، والدَّولة الصَّلاحيَّة، ودولة المماليك.

والمؤرِّخ الحيادي يقشعر بدنه حين يدرس الفظائع الَّتي ارتكبها الغربيُّون باسم السَّيِّد المسيح عليه السَّلام - وهو منها براء - في حروبهم الصَّليبيَّة في مشرقنا العربي؛ صورتان متلازمتان في تاريخ البشريَّة، تعترف بهما كتب الطَّرفين المتحاربين، ما أبشع الأُولى وأَسوأها، وما أَروع الثَّانية وأَجملها.

الصُّورة الأُولى: صورة بيت المقدس يوم الجمعة ١٥ تموز (يوليو) ١٠٩٩م، حيث وحشيَّة الصَّليبيِّين،

الذين لم يستطع حتَّى مؤرخوهم تجاهل المذبحة الَّتي كانت حصيلتها سبعينَ ألف شهيدٍ في المسجد الأقصى، فقد ذكر وليم الصُّوري أن بيت المقدس شهد عند دخول الصَّليبيِّين مذبحة رهيبة، حتى أصبح البلد «مخاضة واسعة من دماء المسلمين»، ويَذْكُر: أن مؤرِّخاً صليبيّاً حضر تلك الأحداث، أراد شقَّ طريقه إلى المسجد الأقصى غداة المذبحة، فلم يستطع أن يشقَّ طريقه وسط أشلاء المسلمين إلَّا بصعوبة بالغة، وأن دماء القتلى بلغت ركبتيه[١]، ومؤرِّخ الحروب الصَّليبيَّة (رانسمان) قال عن هذه المذبحة: «كانت لطخة عار في تاريخ الحملة الصَّليبيَّة الأولى»[٢].

والصُّورة الثَّانية: كانت يوم الجمعة ١٢ تشرين الأَوَّل (أكتوبر) ١١٨٧م، حين استعادة بيت المقدس على يد صلاح الدِّين، إذ أَبت أَخلاقه الإسلاميَّة الرَّدَّ بالمثل، ملقِّناً الغرب درساً في تسامح الإسلام، وروحه الإنسانيَّة؛ فقد سمح للصَّليبيِّين بالخروج قُبالة

(١) الحركة الصَّليبيَّة، د. سعيد عبد الفتَّاح عاشور ٢٤٤ و ٢٤٥.

(٢) الحركة الصَّليبيَّة، د. سعيد عبد الفتَّاح عاشور ٢٤٤ و ٢٤٥.

فدية بسيطة، أعفى منها الفقراء منهم، ويعترف رانسمان بأن صلاح الدِّين لم يكتف بإطلاق سراحهم دون فداء، بل منحهم مساعدات ماليَّة من ماله الخاص، في حين حمل هرقل بطرق بيت المقدس ما استطاع حمله من الذَّهب والفضَّة، ومن خلفه العربات تحمل نفائس الكنيسة[١].

حتَّى ملوكهم حينما يقعون في الأسر لم يُقْتَلوا، هذا ما فعله صلاح الدِّين حين أسر في حطِّين ملك بيت المقدس جاي لوزينيان، لقد استقبله استقبالاً حسناً في خيمته، وأجلسه إلى جانبه وقد أهلكه العطش، فقدَّم له صلاح الدِّين إناء فيه ماء مثلَّج، ثمَّ أمر رجاله برعاية أُمراء الصَّليبيِّين وأسراهم.

ولويس التَّاسع ملك فرنسة، أَسَرَه المماليك في المنصورة، وهو الَّذي جاء لاحتلال أرضنا وقتلنا، ومع ذلك لم يقتله المسلمون، فهذا ما تمليه تعاليم الإسلام وتوجيهاته في معاملة الأسرى: إمَّا تبادل، أو

(١) كتاب الرَّوضتين ٢/ ٢١٥، الكامل في التَّاريخ ٩/ ١٨٤، مفرِّج الكروب ٢/ ٢١٦.

مَنٌّ، أو فِداء، فالأسير لا يُقتل، هذا فضلاً عن إسعافه إن كان جريحاً، ومداواته إن كان مريضاً، وإكرامه حتَّى في مأكله، ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾ [الإنسان: ٧٦/٨].

إنَّه اختلاف الثَّقافة، الَّتي أملت سلوكَيْن متعاكسَيْن: سلوك إسلامي تجلَّى في آثار فتوحات المسلمين، فلم يُكْرَه أحد في عقيدته، إذ الأفكار تُعرض ولا تُفرض، وأَبناء البلدان المفتوحة؛ لهم ما لنا، وعليهم ما علينا وهكذا حين انحسرت قوَّة الفاتحين المسلمين العسكريَّة، لم تنحسر حضارتهم الإسلاميَّة، لقد تشربتها قلوب الشُّعوب إلى يومنا هذا.

وسلوك غربي يدَّعي المسيحيَّة ويبشِّر بها فيما سُمِّي (الكشوف الجغرافيَّة)، وهو سلوك إبادة، ففي الأمريكتَيْن قُتِل أكثر من مئة مليون هندي أَحمر، هم أبناء البلاد الأصليُّون، وقضى الأُوربيُّون على حضارات الإنكا والمايا والأَزتيك، فضلاً عمَّا جرى في سواحل إفريقية، وجزيرة غوري (أَو: غوريه) Goree قُبالة داكار عاصمة السنغال، عدَّتها الأُمم المتَّحدة إرثاً

إرثاً إنسانيّاً يشهد على واحدة من أبشع الجرائم في تاريخ البشريَّة وأقساها، إنَّها تجارة الرَّقيق، حيث (جدران وحجرات بيت العبيد)، وهو الاسم التَّاريخي للمبنى في جزيرة غوري، الَّذي حوَّله القراصنة الأُوربيُّون إلى معتقل ومكان لبيع الأفارقة الَّذين قُنِصُوا وحُكِمَ عليهم بالعبوديَّة، قبل ترحيلهم من باب (اللَّاعودة) عبر الأطلسي، إلى مزارع القطن وقصب السُّكَّر في الأمريكتَيْن[١].

ووحشيَّة الأُوربيِّين في جنوب شرق آسية معروفة، لقد استُعْبد شعب عذراء ماليزية (الفليبِّين) كله، وقتل أكثر من رُبْعِهِ، ولا ننسى إفناء شعب أُسترالية عند اكتشافها واستعمارها.

لقد تركت حضارتنا، أينما حلَّت ووصلت فتوحاتنا، علماً ورفاهاً للجميع وإخاءً إنسانيّاً، وخلَّفت (حضارتهم) أينما حلُّوا - على اختلاف دولهم، فالثَّقافة واحدة - أعداء البشريَّة الثَّلاثة: الفقر،

(١) للمزيد من الحقائق، انظر مواقع الشَّابكة (الإنترنت): جزيرة غوري.

والمرض، والجهل. والبلدان الَّتي وصلتها حضارتنا، والبلدان التي وصلتها (حضارتهم)، خير شاهد اليوم، فآثارنا مدارس وجامعات ومشافٍ.. وآثارهم هدم المدارس والجامعات وإغلاق المشافي، ومن ثم: انتشار للفقر والمرض والجهل، ومستعمراتهم تشهد بذلك من البنغال إلى حوض النيجر، مروراً بجزر القمر ومدغشقر وإفريقية الشَّرقيَّة.

وقعت جفوة بين المؤرِّخ عزِّ الدِّين بن الأثير الجزري، صاحب كتاب (الكامل في التَّاريخ)، وبين صلاح الدِّين الأيوبي، كان سببها أنَّ ريتشارد قلب الأَسد ملك إنكلترة، أَسَر في عكَّا في ٢٠ آب (أغسطس) ١١٩١م؛ ثلاثة آلاف مسلم تعهَّد بسلامتهم، ولكنَّه أمر بقتلهم، والمسلمون عن بُعْد يشاهدونهم[1]، علماً أنَّ صلاح الدِّين عقب انتصاره في حطِّين، وبعد تحريره بيت المقدس؛ حرص دائماً على السَّماح لأهل المدن الَّتي حرَّرها من الصَّليبيِّين بمغادرتها سالمين، ومنع رجاله من الاعتداء عليهم،

---

(١) الحركة الصَّليبيَّة ٨٧٢.

أو التَّعرُّض لهم، بل إنَّه لم يضنّ على ريتشارد نفسه في أثناء مرضه بالفاكهة والثَّلج، أَرسلها إليه والصَّليبيُّون يحاصرون عكَّا، ولم يرد صلاح الدِّين على وحشيَّة ريتشارد بالمثل ردعاً وتأنيباً، ولم يقتل من كان في حوزة المسلمين من أسرى الصَّليبيِّين، وهم أعظم عدداً بكثير من أَسرى عكَّا المسلمين، ومن هنا جاءت الجفوة بين ابن الأثير الجزري وصلاح الدِّين، إنَّه الإفراط في التَّسامح مع الخصوم المعتدين، والمبالغة في التَّساهل معهم؛ فالملك أو الحاكم - بنظر ابن الأثير - «لا ينبغي أن يترك الحزم وإن ساعدته الأَقدار، فلئن يعجز حازماً، خير له من أن يظفر مضيِّعاً للحزم»[1].

التَّسامح سمة من سمات حضارتنا مبدأً وتطبيقاً.

فإلى أهمِّ أسباب، وأحداث، ونهايات الحروب الصَّليبيَّة مكثَّفة مختصرة. ومن أَراد التَّوسُّع فليعُد إلى كتابَيَّ: حطِّين، وعين جالوت، من سلسلة (المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام)، وللتَّوسُّع أكثر والبحث

---

(١) الكامل في التَّاريخ ٩/ ١٨٧.

والدِّراسة، فالمصادر مدوَّنة في الصَّفحات الأخيرة من هذا الكُتيِّب.

والحمد لله ربِّ العالمين أَوَّلاً وآخراً.

دمشق الشَّام

٢٠ ربيع الآخر ١٤٣٠هـ

١٥ نيسان (أَبريل) ٢٠٠٩م

الدكتور شوقي أَبو خليل

Shawki @ Fikr.com



الحروبُ الصّليبيّة

العالم الإسلامي قبيل الحروب الصّليبيّة

انتقلت الإمبراطوريّة البيزنطيّة في القرن العاشر الميلادي من الدّفاع إلى الهجوم، حينما تصدّعت الخلافة الإسلاميّة، حتّى وصل البيزنطيّون زمن نقفور فوقاس حلب عام ١٩٦٢م، ثمّ أغاروا على معرّة النّعمان عام ٩٦٨م، وسيطروا على أنطاكية عام ٩٦٢م، واتّخذ هذا الزّحف طابعاً صليبيّاً واضحاً، حينما صرّحوا أنّهم يزحفون نحو الأرض المقدّسة، لكنّهم لم يصلوا إلى القدس، وكانت أقصى نقطة وصلوا إليها في بلاد الشّام هي مرج ابن عامر، الواقع بين حيفا وبيسان.

في هذه الظّروف؛ ظهر السّلاجقة المسلمون الأتراك على مسرح الأحداث، فأنجدوا الخليفة العبّاسي القائم بأمر الله، وخلّصوه من البساسيري

الَّذي ترك له البويهيُّون مقاليد الأُمور للقضاء على الخلافة العبَّاسيَّة، وتمكَّن طغرل بك السَّلجوقي من الدُّخول إلى بغداد عام ١٠٥٥م، ليقضي على البساسيري، وبذلك سيطر السَّلاجقة على الخلافة العبَّاسيَّة بعد السَّيطرة البويهيَّة.

ومنذ عام ١٠٦٣م تبدَّل الموقف، حينما سيطر السَّلاجقة بقوَّة على أَواسط آسية الصُّغرى - تركية حاليّاً - وراحوا يتوسَّعون على حساب جيرانهم البيزنطيِّين.

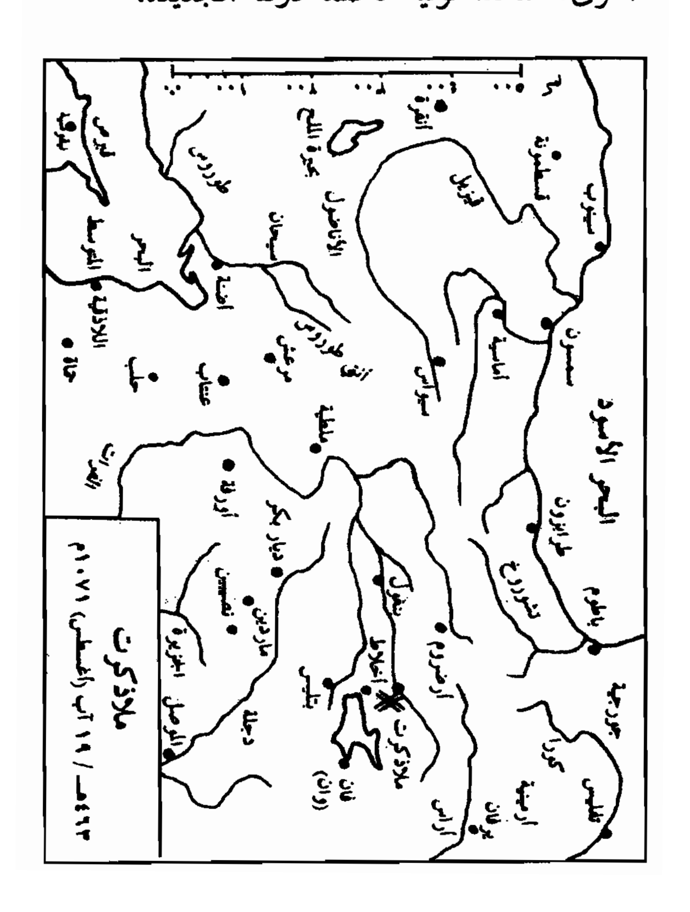
معركة ملاذكرت Malazgirt

معركة حاسمة بين السَّلاجقة بقيادة أَلب أَرسلان، وبيزنطة بقيادة رومانوس الرَّابع، وذلك عام ٤٦٣هـ/ ٢٩ آب (أُغسطس) ١٠٧١م.

جمع رومانوس جيشاً خليطاً من الرُّوس والفرنسيِّين والبلغار واليونانيِّين والجورجيِّين، وسار بهم إلى نواحي ملاذكرت، بالقرب من مدينة أخلاط، شمال بحيرة وان.

وحينما أيقن ألب أرسلان أنَّه لا قِبَلَ له بهذا الجيش، عرض الصُّلح على رومانوس طالباً مهادنته، فردَّ رومانوس بصلف: «لا هدنة إلَّا بالرَّي»، أي إنَّه ينوي غزو بلاد السَّلاجقة حتَّى يصل إلى قلب دولتهم مدينة الرَّي، وحينئذ؛ انزعج السُّلطان ألب أَرسلان، وأَعلن الجهاد المقدَّس، فقويت الرُّوح المعنويَّة لدى جنوده، واستماتوا في القتال، وتمكَّنوا من انتزاع النَّصر في ملاذكرت، وأَسروا رومانوس الرَّابع، ودفعوا جزية للسَّلاجقة، وتمكَّن سليمان قطلمش،

أحد أبناء عمومة ألب أرسلان من التَّوسُّع في آسية الصُّغرى، متَّخذاً قونية عاصمة دولته الجديدة.



إنَّ أهمَّ نتائج ملاذكرت قناعة أوربة أنَّ بيزنطة عاجزة عن حماية المسيحيَّة، فبدأت تفكِّر بحماية نفسها بنفسها، بدعوة إلى حملات صليبيَّة عام ١٠٩٥م.

خلف ملكشاه بن ألب أَرسلان والده عام ١٠٧٢م، ولم يحل عام ١٠٩٦م إلّا والسَّلاجقة خمس ممالك متنافسة:

١- سلطنة فارس، وعاصمتها أصفهان، وعلى رأسها بركياروق، الَّذي كانت له السَّيطرة على عاصمة الخلافة العبَّاسيَّة بغداد.

٢- ومملكة خراسان وما وراء النَّهر، وعلى رأسها أبو الحارث سنجر.

٣- مملكة حلب، وعلى رأسها رضوان بن تتش.

٤- ومملكة دمشق، وعلى رأسها دقاق بن تتش.

٥- وسلطنة سلاجقة الرُّوم، وعلى رأسها قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش.

وبذلك تفتَّت قوَّة المسلمين عند بدء الحركة الصَّليبيَّة، وظهرت بيوتات حاكمة لا يجمعها إلَّا الاتِّصال بالبيت السَّلجوقي، ومن تلك البيوت ظهرت

وحدات سياسيَّة، أطلق عليها الأتابكيَّات[١]، ومنها: أَتابكة دمشق، ومؤسِّسها ظهير الدِّين طغتكين، وأتابكة الموصل، ومؤسِّسها عماد الدين زنكي بن آقسنقر.

أمَّا مصر، فقد سيطر عليها الفاطميون منذ عام ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م، ولم تكن مشاعرهم مع العالم الإسلامي، وسيتحالفون مع الصَّليبيِّين.

الحملة الصَّليبيّة الأولى

أعلن البابا أُوربان الثَّاني بدء الحروب الصَّليبيَّة في مدينة كليرمونت في وسط فرنسة، في ٢٦ تشرين الثَّاني (نوفمبر) ١٠٩٥م، إيذاناً ببدء الحركة الصَّليبيَّة، وأعلن أنه ستغفر ذنوب كلِّ مشارك فيها.

انطلقت (حملة العامَّة) بقيادة بطرس النَّاسك الفرنسي، وارتكبت هذه الجموع الَّتي أتت لتحارب

---

(١) أتابك: لفظ تركي، معناه مربِّي الملك، مشتق من لفظين هما (أتا) بمعنى الأب، و (بك) بمعنى نبيل أو شيخ، استخدمت إبَّان العصر العبَّاسي بمعنى مربِّي الملك، أو مربِّي الأمير، وهو عادة ممَّن يمتُّون إلى الملك أو السُّلطان بصلة القرابة من جهة الأب، (القاموس الإسلامي ١/ ١٨).

باسم المسيح والمسيحيَّة جرائم بحقِّ المسيحيِّين أنفسهم، فقد قاموا بأعمال النَّهب والسَّلب في كلِّ طريق سلكوها، فنهبوا بلغراد ونيش، وغيرهما، حتَّى اعتدوا على الكنائس.

وفي تشرين الأوَّل (أُكتوبر) ١٠٩٦م فاجأ السَّلاجقة هذه الجموع، فلم ينج منهم سوى ٣٠٠٠ فقط. من أَصل ٢٥٠٠٠ محارباً، منهم ٥٠٠ فارس.



الجيش الصليبي في اتّجاهه نحو بيت المقدس

وهكذا أخفقت حملة العامَّة، وبقيت ذكراها في نفوس الأُوربيِّين، وتنادت أُوربة لحملة جديدة، قادها جودفري بوايون البولوني برفقة أَخيه بلدوين، وكانت الحملة الصَّليبيَّة الأُولى، الَّتي وصلت إلى القسطنطينيَّة في نيسان (أَبريل) ١٠٩٧م، وانطلقت حتَّى وصلت أَنطاكية في ٢٠ تشرين الأَوَّل (أُكتوبر) ١٠٩٧م، واتَّجه بلدوين إلى الرُّها فدخلها في آذار (مارس) ١٠٩٨م مقيماً أَوَّل إمارة صليبيَّة في الشَّرق، وبعد حصار سبعة أشهر؛ دخل الصَّليبيُّون أَنطاكية في ٣ حزيران (يونيو) ١٠٩٨م، ليشكِّلوا الإِمارة الصَّليبيَّة الثَّانية، ثمَّ اتَّجهت الحملة جنوباً نحو القدس، والعجيب أنَّ المسلمين لم يدركوا طبيعة الحركة الصَّليبيَّة وهدفها، بدليل أنَّ الفاطميِّين في مصر فاوضوا الصَّليبيِّين في مشروع للتَّحالف معهم، ضد خصومهم العبَّاسيِّين السُّنَّة في بغداد، والأَتراك السَّلاجقة في بلاد الشَّام.

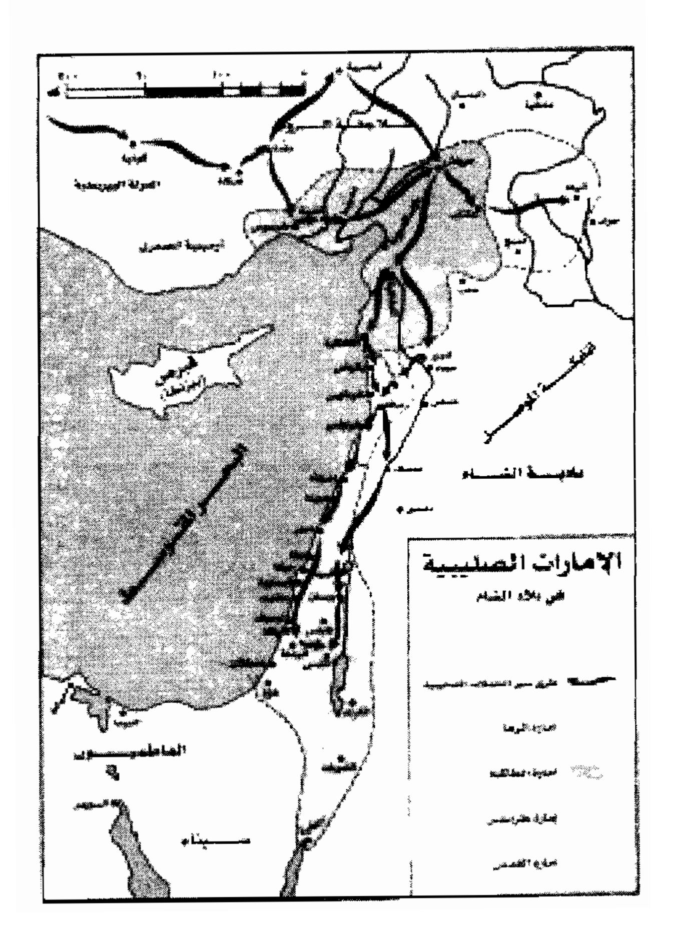
احتلال بيت المقدس

التزم الصَّليبيُّون طريق السَّاحل حتَّى وصلوا الرَّملة، ووصلوا أَسوار القدس في ٧ حزيران (يونيو) ١٠٩٩م،

وفي يوم الجمعة ١٥ تموز (يوليو) ١٠٩٩م؛ اقتحم الصَّليبيُّون القدس، مرتكبين مذبحة وحشيَّة رهيبة، قدَّر المؤرِّخون عدد القتلى المسلمين في الأقصى الشَّريف فقط بسبعين ألف قتيل، واعترف الأُوربيُّون أنَّ هذه المذبحة كانت لطخة عار في تاريخ الحملة الصَّليبيَّة الأُولى، ويُعَدُّ جودفري بوايون أَوَّل حاكمٍ صليبيٍّ لبيت المقدس.

تحمَّس كثير من الأُمراء الأُوربيِّين بعد سماعهم نبأ نجاح الحملة الأُولى، فتحرَّكت حملة في أَيلول (سبتمبر) ١١٠٠م، لتعبر البوسفور في نيسان (أبريل) ١١٠١م، ولكن هذه الجموع كان مصيرها الفشل، بسبب دعم قلج أَرسلان السَّلجوقي، ورضوان ملك حلب، الملِكَ غازي كمشتكين، فهزمت الحملة أوائل آب (أُغسطس) ١١٠١م، بين أماسية وسيواس.

وتوحَّدت جهود الصَّليبيِّين في بلاد الشَّام، بيت المقدس وأَنطاكية والرُّها، وحاصروا طرابلس ست سنوات، ودخلوها في ١٢ تموز (يوليو) ١١٠٨م، مؤسِّسين الإمارة الصَّليبيَّة الرَّابعة.


الإمارات الصليبية
في بلاد الشام

نور الدّين زنكي

دخل عماد الدِّين زنكي في خدمة أتابكة الموصل، الَّذين اختاروه لحكم حلب عام ١١٢٨م، فنظَّم أمورها، وتوجَّه إلى إمارة الرُّها، وحرَّرها من الصَّليبيِّين في ٢٣ كانون الأوَّل (ديسمبر) ١١٤٤م، وشمل جميع السُّكَّان على اختلاف دينهم برعايته وحمايته، ولكنَّه اغتيل في منتصف أيلول (سبتمبر) ١١٤٦م، وهو يحاصر قلعة جَعْبَر، ويبدأ ابنه نور الدِّين محمود جهاده ضدّ الصَّليبيِّين، فحرَّر معظم أراضي إمارة أنطاكية، ووحَّد البلاد، حتَّى شملت سلطته بلاد الشَّام الشَّرقيَّة والموصل وديار بكر والجزيرة ومصر واليمن، وخُطِب له بالحرمَيْن، وأنشأ المدارس، وبنى المشافي، وعني بالطُّرق والخانات، وأقام دار العدل، فعفَّ قادته وعمَّاله عن الظُّلم. ويمكننا القول بقوَّة: إنَّه الخليفة الرَّاشدي السَّادس.

الحملة الصّليبيّة الثّانية

شعرت دول أُوربَّة بعد تحرير إمارة الرُّها أنَّ ما بنته في الشَّرق بدأ ينهار، فسارعت إلى ترميمه بحملة

صليبيَّة ثانية عام ١١٤٧م، بقيادة كونراد الثَّالث إمبراطور ألمانية، ولويس السَّابع ملك فرنسة.

وأخفق كونراد في الوصول إلى بلاد الشَّام، حيث تبدَّد جيشه بين قتيل وأسير على يد السَّلاجقة، وسار مع عدد قليل بحراً إلى القدس. وبعد عبور لويس السَّابع البوسفور؛ منع مانويل كومنين إمبراطور القسطنطينيَّة وصول إمدادات المؤن للحملة، فحلَّت كارثة بلويس السَّابع وجيشه، كما حلَّت في كونراد من قبل، واتَّجه مع مَن بقي من جنده إلى فلسطين على سفن بيزنطيَّة. وفي بيت المقدس، وفي حزيران (يونيو) ١١٤٨م قرَّر لويس السَّابع، وكونراد الثَّالث، وملك القدس بلدوين الثَّالث مهاجمة دمشق، فوصلوا غوطتها في ٢٤ حزيران (يونيو) ١١٤٨م، وأخفقت الحملة أمام أسوار دمشق، وغادر كونراد، ثمَّ لويس السَّابع إلى أُوربَّة من ميناء عكَّا.

ودخل نور الدِّين دمشق بعد إخفاق الحملة، وهي خطوة هامَّة في مصير الصَّليبيِّين في الشَّرق، فالوحدة تحقَّقت من الرُّها شمالاً حتَّى حوران جنوباً، وأضحت

دمشق هي العاصمة، وامتدت هذه الوحدة إلى مصر، حينما سيَّر نورُ الدِّين أَسَدَ الدِّين شيركوه، ومعه ابن أخيه صلاح الدِّين، فضمَّ مصر في كانون الثَّاني (يناير) ١١٦٩م، منهياً حكم الفاطميِّين.

توفِّي نور الدِّين محمود في ١٥ أيَّار (مايو) ١١٧٤م، فسار صلاح الدِّين من مصر إلى الشَّام، وحجَّته أنَّ الملك الصَّالح ابن نور الدِّين صبيٌّ لا يستقلُّ بالأمر، ولا ينهض بأعباء المُلْك، وضمَّ حلب في حزيران (يونيو) ١١٨٣م، موحِّداً البلاد من جبال طوروس شمالاً، إلى النُّوبة واليمن جنوباً.

وفي عام ١١٨٢م أقدم أَرناط صاحب حصن الكرك على مشروع خطير، هدفه السَّيطرة على البحر الأحمر، وغزو الحرمَيْن الشَّريفَيْن، فسارع العادل أخو صلاح الدِّين إلى إرسال أُسطول من مصر، بقيادة الحاجب حسام الدِّين لؤلؤ، الَّذي تعقَّب سفن الصَّليبيِّين في ميناء العقبة، وعيذاب، وينبع، فدمَّر أُسطولهم.

بطل حطِّين

صلاح الدِّين الأَيُّوبي (٥٣٢ - ٥٨٩هـ/ ١١٣٧ - ١١٩٣م)[١]، يوسف بن أَيّوب بن شادي، وُلِد بقلعة تكريت، اتَّفق لوالده الانتقال إلى الشَّام، حيث ظهرت مواهب صلاح الدِّين، فقُدِّم لنور الدِّين الَّذي قرَّبه لدينه وورعه، وعظيم تقديره لشعائر الدِّين، ولعدله وكرمه وشجاعته وصبره وحلمه وعفوه، ومحافظته على أسباب المروءة. روى ابن شداد ما شاهده رأي العين[٢]: مَثُلَ بين يدي صلاح الدِّين أسيرٌ صليبيٌّ وقد هابه، وظهرت عليه أماراتُ الخوف والجزع، فقال له التُّرجمان: من أَي شيء تخاف؟ فأجرى الله على لسانه أنَّه قال: كنت أخاف قبل أن أرى هذا الوجه، فبعد رؤيتي له، وحضوري بين يديه، أيقنت أنِّي ما أرى إلَّا الخير. فرقَّ له، ومَنَّ عليه، وأطلقه.

وروى ابن شدَّاد أيضاً قصَّة المرأة الإفرنجيَّة الَّتي افتقدت ابنتها، فرقَّ لها، ودمعت عينه، وحرَّكته

(١) الأعلام ٨/ ٢٢٠.

(٢) النَّوادر السُّلطانيَّة ٣٢.

المروءة، وأمر بالبحث عنها، وما هي إلّا فترة وجيزة وابنتها بين يديها، فرفعت طرفها إلى السَّماء، ولا نعلم ما تقول، حتَّى أُعيدت إلى مأمنها[١].

حطّين: السّبت ٢٥ ربيع الآخر ٥٨٣هـ/ ٤ تموز (يوليو) ١١٨٧م

تُوِّج جاي لوزينيان ملكاً على بيت المقدس بعد وفاة بلدوين الخامس في آب (أغسطس) ١١٨٦م، فتقرَّب ريموند أمير طرابلس من صلاح الدِّين لضياع مطامعه، وخيبة آماله.

ولم يتَّعظ أرناط صاحب الكرك بأحداث حياته، فهو لا يستطيع العيش دون نهب وسلب، فانقضَّ على قافلة كبيرة تحمل ثروة طائلة، متَّجهة من القاهرة إلى دمشق أواخر عام ١١٨٦م، أوائل عام ١١٨٧م، وعلى الرَّغم من الاحتياطات اللّازمة، كَمَنَ أرناط للقافلة وحاميتها، وسلب كلَّ ما فيها، وأسر رجالها، فأرسل إليه صلاح الدِّين يتهدَّده إن لم يطلق الأسرى والأموال، وامتنع أرناط، وبلغت به الوقاحة إلى أن

(١) النَّوادر السُّلطانيَّة ٣٣.

يقول لرسل صلاح الدِّين: قولوا لمحمد يخلِّصكم. ولما علم صلاح الدِّين بقوله؛ أقسم على أن ينتقم من أرناط بيده[١].

وأدرك جاي لوزينيان خطورة ما قام به أرناط، فطلب منه إطلاق الأسرى، وإعادة المنهوبات، فأعرض وأصرَّ على عدم تنفيذ الأوامر الَّتي أصدرها ملك بيت المقدس، فلم يبق أمام صلاح الدِّين إلَّا القصاص، فأعلن التَّعبئة الشَّاملة لقوى دولته، لخوض معركة حاسمة، فجاء الجند من حلب، والجزيرة، وديار بكر، ومصر.. وغادر دمشق في منتصف آذار (مارس) ١١٨٧م، واستطلع منطقة طبريَّة والجليل وسهل ابن عامر بفرسان قادهم مظفَّر الدِّين كوكُبُري صاحب إربيل وحرَّان والرُّها، وحاول الصَّليبيُّون التَّصدِّي لهذه القوّات، فسقط معظمهم بين قتيل وأسير، وسرعان ما أفاق الصَّليبيُّون، فدخل ريموند الثَّالث أمير طرابلس في طاعة جاي لوزينيان، وتجمَّعت قواتهما عند صفُّورية، فزحف صلاح الدِّين

---

(١) الحركة الصَّليبيَّة ٧٩٨.

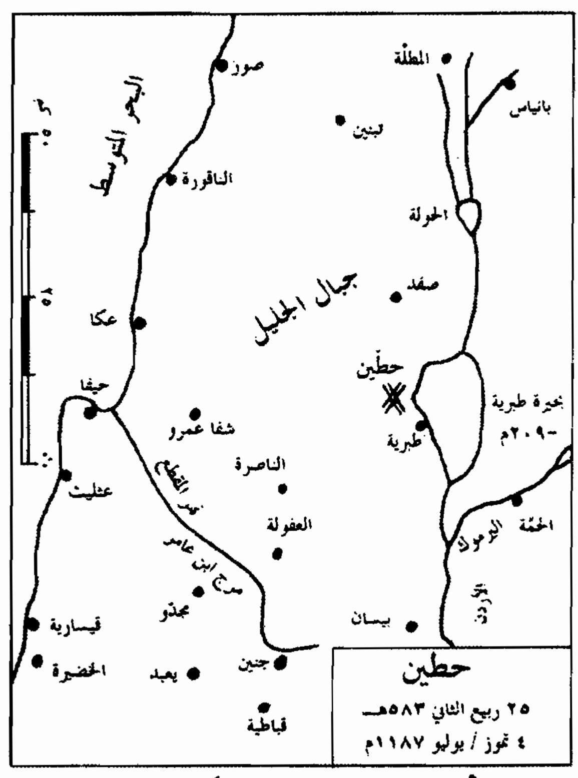
إلى طبريَّة في أوائل تموز (يوليو) ١١٨٧م، وتجلَّت مهارته العسكريَّة حينما أراد خوض معركة حاسمة، يحدِّد ميدانها، فأجبر عدوَّه على المسير إلى المكان المرسوم، إلى قرية حطّين قرب طبريَّة، في حرارة جوِّ تموز، وقلَّة الماء، لسيطرة جيش صلاح الدِّين على شواطئ طبريَّة.

وفي ٣ تموز (يوليو)، حيث حرارة الجو الشَّديدة، وركود الهواء، وصل الصَّليبيُّون إلى هضبة مشرفة على سهل حطّين وهم منهكون، وقد اشتدَّ بهم العطش، فقضوا ليلتهم يئنُّون من العطش والإنهاك[1]، وهم يسمعون أصوات المسلمين في كلِّ حطّين، وقد أكثروا من التَّكبير والتَّهليل طوال ليلتهم، وأشعلوا النَّار في الأعشاب والأشواك الَّتي تكسو الهضبة، «وكانت الرِّيح على الفرنج، فحملت حرَّ النَّار والدُّخان إليهم، فاجتمع عليهم العطش، وحرُّ الزَّمان، وحرُّ النَّار والدُّخان، وحرُّ القتال»[2].

---

(١) الحركة الصَّليبيَّة ٨٠٧.

(٢) الكامل في التَّاريخ ٩/ ١٧٨.



وحينما أشرقت شمس يوم السَّبت ٤ تموز (يوليو) وجد الصَّليبيُّون أنَّ صلاح الدِّين استغلَّ ستار اللَّيل ليحيط بهم إحاطة الدَّائرة بقطرها، وبذلك بدأ هجوم المسلمين، وتعذَّر على الصَّليبيِّين الصُّمود، وفرَّ ريموند أمير طرابلس ومعه قلَّة من رجاله، وأُسر جاي لوزينيان

وأرناط، وسيقا إلى خيمة صلاح الدِّين، فاستقبلهما استقبالاً حسناً، وأجلس لوزينيان إلى جانبه وقد أهلكه العطش، فقدَّم له صلاح الدِّين إناء فيه ماء مثلَّج، فشرب منه، وترك به بقيَّة أعطاها لأرناط فشربها، وعندئذ غضب صلاح الدِّين وقال: إنَّ هذا الملعون لم يشرب الماء بإذني، فيناله أماني. وفي (الرَّوضتين)[1]: قال صلاح الدِّين لجاي لوزينيان: لم تأخذ في سقيه منِّي إذناً، فلا يوجب ذلك له منِّي أمناً، والتفت نحو أرناط يذكِّره بجرائمه ونكثه لعهوده، وقرَّعه، وعدَّد عليه غدراته، وقال له: كم تحلف وتنكث؟ فردَّ أرناط على لسان التُّرجمان: قد جرت بذلك عادة الملوك. وحينئذ أمسك صلاح الدِّين بسيفه، وأطاح برأس أرناط موفياً بنذره.

وارتاع جاي لوزينيان، ولكن صلاح الدِّين هدّأ روعه، وقال له: لم تجرِ عادة الملوك أن يقتلوا الملوك، وأمَّا هذا؛ فإنه تجاوز حدَّه، فجرى عليه ما جرى، ثمَّ أمر برعاية أُمراء الصَّليبيِّين وأَسراهم.

---

(١) كتاب الرَّوضتين ٢/ ٧٩.

نتائج حطّين (استرداد بيت المقدس)

اتَّجه صلاح الدِّين بعد انتصار حطّين إلى عكَّا والمدن السَّاحليَّة ليحرم الصَّليبيِّين إمدادات قواعدهم البحريَّة الَّتي تربطهم بأُوربَّة، وليتَّصل عبر هذه الموانئ بمصر أحد شطري دولته، وحرِّرت عكَّا والنَّاصرة وقيسارية وحيفا ويافا وصيدا وبيروت والرَّملة وغزَّة وعسقلان.. ولم يبقَ أمامه داخل فلسطين إلَّا بيت المقدس، فاتَّجه إليها، وتصرَّف تصرُّفاً كريماً حينما سمح بخروج النِّساء والأطفال من المدينة آمنين تحت حراسة جنده، وفي يوم الجمعة ٢٧ رجب ٥٨٣هـ/ ١٢ تشرين الأوَّل (أُكتوبر) ١١٨٧م؛ دخل صلاح الدِّين القدس في ليلة الإسراء والمعراج، ولم يهدم كنيسة أو معلماً مسيحيّاً. وأمّا اليتامى والشُّيوخ والأرامل من الصَّليبيِّين؛ فقد منحهم صلاح الدِّين مساعدات ماليَّة من ماله الخاصّ.

وشتَّان بين صورة دخول الصَّليبيِّين عام ١٠٩٩م حيث سواقي الدِّماء، وصورة دخول المسلمين عام ١١٨٧م حيث الأمن والأمان، وقمم التَّسامح وشموخه.

الحملة الصّليبيّة الثّالثة

كان لتحرير القدس الشَّريف ردٌّ فعل عنيف بالغرب، فدفعوا بالحملة الصَّليبيَّة الثَّالثة، بقيادة فردريك بربروسا إمبراطور ألمانية، عام ١١٨٩، ضمَّت مئة ألف محارب، ولكن حادثاً مفاجئاً قلب الموقف رأساً على عقب، فقد غرق فردريك في أثناء عبوره نهراً صغيراً، وهو في طريقه من طرسوس - قرب أضنة - إلى أنطاكية، فاختل نظام الجيش، وتفرَّق الألمان، وتشتَّت جمعهم، وعاد بعض أُمرائهم إلى أُوربَّة.

حاولت بقايا الحملة الثَّالثة مع دعم بحري من فرنسة وإنكلترة استرجاع عكَّا، تمدُّهم قوَّة بحريَّة كبيرة دون جدوى، حتَّى وصل ريتشارد قلب الأسد ملك إنكلترة، وفيليب أُغسطس ملك فرنسة، ودخل الصَّليبيُّون عكَّا ثانية في تموز (يوليو) ١١٩١م، بعد حصار عامين.

وبعد معارك على ساحل فلسطين، وخلافٍ حادٍّ في صفوف الصَّليبيِّين، قرَّر ريتشارد طلب الصُّلح مع صلاح الدِّين، فكان صلح الرَّملة في ٢ أيلول (سبتمبر)

١١٩٢م، الَّذي نصَّ على صلح مدَّته ثلاث سنوات وثلاثة أشهر، وحرِّيَّة الحجِّ إلى بيت المقدس.

إنَّ ظروف جند صلاح الدِّين اضطرته إلى الصُّلح؛ بُعْدُهم عن بلادهم والملل من طول القتال، والأُمراء أنفسهم رغبوا في العودة إلى مدنهم البعيدة في الجزيرة، وشمال العراق، ثم إنه قد تحقَّق الهدف العام الأساسي، وهو تحرير بيت المقدس.

توفِّي صلاح الدِّين أوائل آذار (مارس) ١١٩٣م بدمشق، فقامت المنازعات بين ورثته حول تقسيم التركة، وتمكَّن الملك العادل صفي الدِّين أبو بكر محمد بن أيوب بن شادي، أخو صلاح الدِّين[١]، من توحيد الدَّولة الأيُوبيَّة من جديد، وأعاد الجبهة الإسلاميَّة متَّحدة.

الحملة الصّليبيّة الرّابعة

حينما تولَّى البابا أنوسنت الثَّالث عام ١١٩٨م، وضع برنامجاً هدفه: محو آثار حروب صلاح الدِّين

---

(١) الأعلام ٦/ ٤٧.

في الشَّرق، واستعادة بيت المقدس مرَّة أخرى من المسلمين، فكانت الحملة الصَّليبيَّة الرَّابعة، الَّتي استهدفت مصر، ولكنَّها انحرفت عن هدفها واتَّجهت إلى القسطنطينيَّة، واستولت عليها عام ١٢٠٤م، ونهبت البلد، حتَّى الكنائس والأديرة، وعُيِّن بلدوين الرَّابع (الكاثوليكي) إمبراطوراً للقسطنطينيَّة، ولم تعد إلى البيزنطيِّين (الأرثوذكس الشَّرقيِّين) إلَّا عام ١٢٦١م، على يد ميخائيل الثَّامن.

وفي عام ١٢١٢م كانت حملة الأطفال، الَّذين هلكوا في ممرَّات جبال الألب، وغرق من بقي منهم في مياه البحر المتوسط.

وفي عام ١٢١٧م كانت الحملة الهنغاريَّة بقيادة ليوبولد السَّادس دوق النِّمسة، وأندريه الثَّاني ملك هنغاريَّة، انتهت عام ١٢١٨م دون أن تحقِّق عملاً يذكر.

الحملة الصّليبيّة الخامسة

كانت هذه الحملة على مصر سنة ١٢١٨م لاعتقاد الصَّليبيِّين أنَّ مفاتيح بيت المقدس توجد في القاهرة،

فهي مخزن الإمدادات في العالم الإسلامي، قادها حنادي برين، الَّذي سار من عكَّا بجموع وفدت على بلاد الشَّام، قاصداً دمياط، مع اتِّصال بنجاشي الحبشة، ليتعاون معهم عن طريق غزو الحجاز، وهدم الكعبة.

أخفقت الحملة الخامسة، وتمَّ الجلاء عن دمياط في ٧ أيلول (سبتمبر) ١٢٢١م.

الحملة الصّليبيّة السّادسة

حضَّ البابا أنوسنت الثَّالث عام ١٢١٥م فردريك الثَّاني على القيام بحملة صليبيَّة، ولكنَّه ماطل، ممَّا أفزع البابا، فلم يكن فردريك الثَّاني جادّاً في مشروعه الصَّليبي، إذ نشأ فيلسوفاً أَجاد ستَّ لغات من بينها اللُّغة العربيَّة، وتذوَّق الشِّعر العربي، فهو لا يملك ذاك الحافز الَّذي يدفعه إلى دخول حرب ضدَّ الإسلام والمسلمين، وهو الَّذي نشأ في صِقِلِّيَّة في كنف الحضارة الإسلاميَّة، وشبَّ على حبِّ المسلمين وحضارتهم[1].

---

(١) مفرِّج الكروب ٣/ ٢٥٢.

وكان الكامل الأيُّوبي مولعاً بالتَّاريخ والفلسفة والعلوم، وكان بينه وبين فردريك الثَّاني مراسلات لحلِّ بعض مسائل في الهندسة والرِّياضيّات والفلسفة، وهذا ممَّا جعل الحملة الصَّليبيَّة السَّادسة تكتسي بمسحة من التَّسامح، حتَّى اتُّهم فردريك الثَّاني بميله إلى الإسلام وممالأته على حساب المسيحيَّة، وأصدر البابا قرار حرمان ضد فردريك الثَّاني في ٢٩ أيلول (سبتمبر) ١٢٢٧م، بسبب عدم تنفيذ وعده بقيادة حملة صليبيَّة، فأدرك فردريك الثَّاني أنَّ مصلحته تستدعي القيام بحملته حتَّى يفوِّت على البابا غرضه في إظهاره في صورة المسيحي العاقّ، فخرج بقوَّة صغيرة وقصد عكَّا في حزيران (يونيو) ١٢٢٨م، فكانت الحملة الصَّليبيَّة السَّادسة، وهي أغرب الحملات قاطبة، فالحملات السَّابقة حظيت بعطف البابا وبركته، وهذه الحملة جاءت ملعونة من البابا.

لقد كانت الحملة السَّادسة نزهة جميلة قام بها فردريك الثَّاني إلى الشَّرق لزيارة صديقه الكامل الأيُّوبي، فوصل عكَّا مع خمس مئة فارس فقط في ٧ أيلول (سبتمبر) ١٢٢٨م.

وبعد مفاوضات بين السُّلطان الكامل الأيُّوبي وفردريك الثَّاني؛ وُقِّع صلح يافا عام ١٢٢٩م، ومدَّته عشر سنوات، على أن يأخذ الصَّليبيُّون بيت المقدس، وبيت لحم، والنَّاصرة، وصيدا، ويكون سائر قرى القدس للمسلمين، وأنَّ الحَرَم يكون بأيدي المسلمين، لا يدخله الفرنجة إلَّا للزِّيارة فقط، مع رفع الأذان وإقامة الصَّلاة[١].

لقد فرَّط الكامل الأيُّوبي ببيت المقدس، فعَظُم على أهل الإسلام ذلك.

وبعد زيارة فردريك الثَّاني كنيسة القيامة، عاد إلى إيطالية، فوصلها في ١٠ حزيران (يونيو) ١٢٢٩م، ليرفع البابا قرار حرمانه عن الإمبراطور.

الخُوَارِزْمِيّة واسترداد بيت المقدس

نشبت خلافات بين ملوك الأيُّوبيِّين الثَّلاثة: الصَّالح أَيُّوب في مصر، وعمِّه الصَّالح إسماعيل في دمشق،

---

(١) السُّلوك للمقريزي ١/ ٢٣٠.

وساند النَّاصر داوود في الأردن الصَّالح إسماعيل، الَّذي لجأ إلى طلب مساعدة الصَّليبيِّين الَّذين وافقوا على أن يتسلَّموا بيت المقدس بما فيه المسجد الأقصى وقبَّة الصَّخرة. ولما حصل لهم ذلك فأساؤوا لمشاعر المسلمين وآذوهم، حتَّى وقف الرُّهبان على الصَّخرة وزجاجات الخمر بأيديهم، وأُبطل الأذان بالحرم، فلم يجد الصَّالح أيُّوب ملك مصر بُدّاً من الاستعانة بالخُوَارزميَّة، الَّذين كانت دولتهم فيما وراء النَّهر، وخراسان، وفارس، وسجستان.. فدمَّرها جنكيز خان عام ١٢٢٠ - ١٢٢٢م، وبعد عودته إلى عاصمته قراقورم، اتَّخذ سلطان الخوارزميَّة جلال الدِّين منكبرتي أصفهان عاصمة، ووصل في حروبه ضواحي بغداد، وبلغ جورجية، وآسية الصُّغرى، فجاور أملاك الأشرف ابن العادل الأيُّوبي.

لبَّى الخوارزميَّة استنجاد الصَّالح أيُّوب، واندفع عشرة آلاف منهم عبر بلاد الشَّام، صوب بيت المقدس، وحرَّروه في ١١ تموز (يوليو) ١٢٤٢م، وبذلك عاد بيت المقدس إلى المسلمين نهائيّاً حتَّى عام

١٩١٦م، حين دخله ألّنبي خلال الحرب العالميَّة الأُولى قائلاً: الآن انتهت الحروب الصَّليبيَّة[١].

وحينما سار الخوارزميَّة إلى غزَّة للقاء الجيش المصري الَّذي أرسله الصَّالح أيُّوب؛ جاءت قوَّات إسلاميَّة من حمص ودمشق والكرك، وفي ١٧ تشرين الأوَّل (أكتوبر) ١٢٤٤م كانت موقعة غزَّة الثَّانية، وحلَّت هزيمة ساحقة بالصَّليبيِّين وعُدَّت هذه المعركة (حطِّين الثَّانية)، لأنَّها أعظم كارثة حلَّت بالصَّليبيِّين منذ معركة حطِّين عام ١١٨٧م.

الحملة الصّليبيّة السّابعة على مصر

بعد سماع أُوربَّة باسترداد المسلمين لبيت المقدس؛ هيّأت للحملة الصَّليبيَّة السَّابعة، الَّتي قادها لويس

(١) وهذا ما قاله غورو في آب (أغسطس) ١٩٢٠م أمام ضريح صلاح الدِّين بدمشق:

«يا صلاح الدِّين، أنت قلت لنا في إبَّان حروبك الصَّليبيَّة إنَّكم خرجتم من الشَّرق ولن تعودوا إليه، وها إنَّنا قد عدنا، فانهض لترانا ها هنا، لقد ظفرنا باحتلال سورية»، (الإسلام وحركات التحرُّر العربيَّة ١٦١).

التَّاسع ملك فرنسة، الَّذي قضى وجيشه شتاء ١٢٤٨ - ١٢٤٩م في قبرص، يحثُّ المغول على التَّوجُّه إلى الشَّام لمساعدة الصَّليبيِّين.

وتمكَّن لويس التَّاسع من دخول دمياط في حزيران (يونيو) ١٢٤٩م، ثمَّ شرع في الزَّحف إلى القاهرة، ولكنَّ الهزيمة حلَّت به في المنصورة نيسان (أبريل) ١٢٥٠م على يد المماليك بقيادة بيبرس[١]، ووقع جيشه بأجمعه بين قتيل وأسير، وأُسِرَ لويس التَّاسع وسُجِنَ في دار فخر الدِّين إبراهيم بن لقمان.

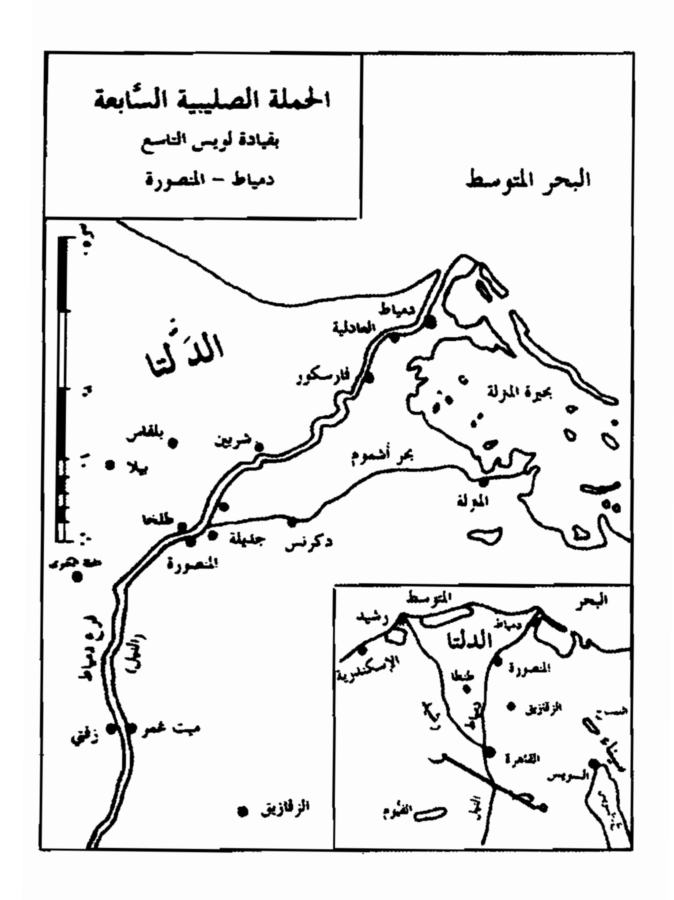
جاء لويس التَّاسع لقتل المسلمين واحتلال أرضهم، وأسَره المسلمون، لكنَّهم لم يقتلوه، فهذا ما تمليه عليهم تعاليم دينهم ومبادئه في معاملة الأسرى، إمَّا تبادل، وإمَّا مَنٌّ، وإمَّا فداء، فالأسير في آداب حروبهم وقوانينها لا يُقتل[٢]. وتمَّ إطلاق سراح

(١) انتهت دولة الأيُّوبيِّين في مصر عام ٦٦٥هـ/ ١٢٥٢م، ليبدأ حكم المماليك فيها.

(٢) وهذا لا يعني عدم قتل مجرمي الحرب الَّذين يثبت قتلهم المدنيِّين كأرناط وفرسان الدَّاويَّة والإسبتاريَّة.

لويس التَّاسع لقاء فدية، وغادر دمياط في ٨ أيَّار (مايو) ١٢٥٠م، ليصل بحراً إلى عكَّا في ١٣ أيَّار (مايو)، الَّتي قضى فيها أربع سنوات لتصفية الخلافات بين أُمراء الصَّليبيِّين، وقام بمراسلات هامَّة مع التَّتار لتطويق المسلمين، دعمت الاتِّصالات القائمة بين البابا والتَّتار، لتحقيق تحالف صليبي - تتري، يجعل بلاد المسلمين في الشَّام بين فكَّي كمَّاشة.

غادر لويس التَّاسع عكَّا عائداً إلى بلاده في ٢٥ نيسان (أَبريل) ١٢٥٤م، لتعود الخلافات والانقسامات بين الجبهات الصَّليبيَّة، جرَّت حروباً بينها برّاً وبحراً.


الحملة الصليبية السابعة
بقيادة لويس التاسع
دمياط - المنصورة
البحر المتوسط
الدلتا
دمياط
العادلية
فارسكور
بحيرة المنزلة
بلقاس
شربين
بيلا
بحر أشموم
المنزلة
طلخا
جليلة
دكرنس
المنصورة
فرع دمياط
(النيل)
ميت غمر
زفتي
الزقازيق
البحر
المتوسط
رشيد
دمياط
الدلتا
الإسكندرية
المنصورة
طنطا
الزقازيق
القاهرة
السويس
الفيوم



الصليبيون في حصار دمياط

الحملة الصَّليبيّة الثَّامنة

إذا كانت الحركة الصَّليبيَّة تعني الحروب الَّتي شنَّها الأُوربيُّون على المسلمين في العصور الوسطى بدافع تعصُّبهم الدِّيني، فإن معنى ذلك أنَّ تلك الحركة لم

تكن محدودة بميدان معيَّن، أو ببلد واحد، وإنَّما كان من الممكن أن تشتعل نيرانها في كلِّ بلد يعثر به الأوربيُّون على مسلمين، وهكذا صارت إسبانية وآسية الصُّغرى، وشمال إفريقية ميادين للمعركة الصَّليبيَّة، بالإضافة إلى الميادين المعروفة في الشَّام ومصر وسواحل شبه جزيرة العرب، ومياه البحرين الأحمر والمتوسط.

لو كانت الحروب الصَّليبيَّة مجرَّد حرب لاسترداد الأراضي المقدَّسة من المسلمين، وحماية حجَّاج أوربَّة القاصدين إلى تلك الأراضي؛ لاقتصر ميدانها على بلاد الشَّام، ولكن الحركة الصَّليبيَّة كانت أوسع من ذلك بكثير، إنَّها كانت المتنفَّس الَّذي عبَّر به الغرب الأوربِّي عن حماسته الدِّينيَّة، ونقمته على الإسلام والمسلمين، ورغبته في التَّوسُّع والاستعمار(١).

ولا أدلَّ على ذلك من اتِّجاه لويس التَّاسع سنة ١٢٧٠م في الحملة الصَّليبيَّة الثَّامنة، نحو تونس دون

---

(١) الحركة الصَّليبيَّة ١٢٣٧ و ١٢٣٨.

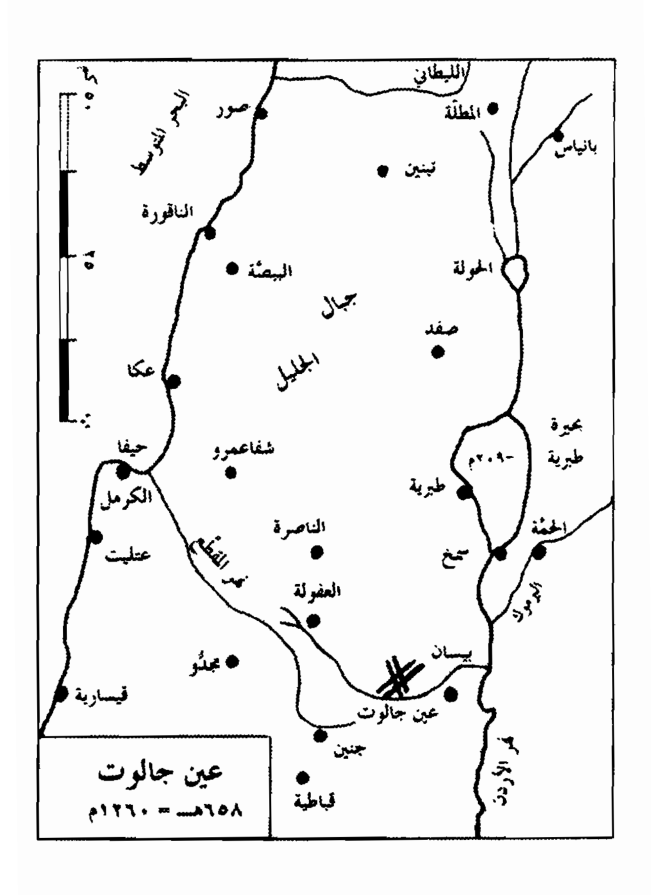
مبرِّر أو داع، الَّتي كان يحكمها أبو عبد الله محمد المستنصر بالله، أمير الحفصيِّين، والَّذي كانت تربطه علاقات ودِّيَّة بحكَّام أُوربَّة، حتَّى اتَّهمه المقريزي بميوله للفرنج، ووصفه بأنَّه «لا يصلح أن يلي أمور المسلمين»[١].



لويس التاسع أسيراً في المنصورة

(١) السُّلوك ١/ ٦٠١.

لقد طمع لويس التَّاسع بموارد تونس، وبموقعها الَّذي يمكِّنه من القيام بحملة جديدة ضدَّ مصر، ونشر المسيحيَّة في الشَّمال الإفريقي، وانتهى أمر الحملة الثَّامنة إلى إخفاق ذريع، بسبب حرارة الجوِّ، وتفشِّي الأمراض في معسكر الصَّليبيِّين، حتَّى لويس التَّاسع مات بالطَّاعون في تونس في آب (أغسطس) ١٢٧٠م.


الليطاني
صور
البحر المتوسط
المطلة
بانياس
تبنين
الناقورة
البصة
الحولة
جبال
الجليل
صفد
عكا
بحيرة
طبرية
حيفا
شفاعمرو
طبرية
الكرمل
الناصرة
الحمة
عتليت
سمخ
نهر المقطع
العفولة
اليرموك
بيسان
مجدو
قيسارية
عين جالوت
جنين
نهر الأردن
قباطية
عين جالوت
٦٥٨هـ = ١٢٦٠م

خاتمة

تحرير عَكّا

ونهاية الصّليبيين

التّتار والخلافة العبّاسيّة

دخل هولاكو بغداد عام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، بعد خيانة الوزير ابن العلقمي، الَّذي سهَّل دخول التَّتار، فقتلوا آخر خليفة عبَّاسي (المستعصم بالله)، وعاد هولاكو إلى العاصمة التَّتريَّة قراقورم، وقاد التَّتار من بعده كتبغانوين، الَّذي سار شمالاً ثم غرباً، ليدخل التَّتار حلب في ٢٥ كانون الثَّاني (يناير) ١٢٦٠م، ثمَّ سارت جموعهم جنوباً ودخلت دمشق، ووصلت بعدها غزَّة.

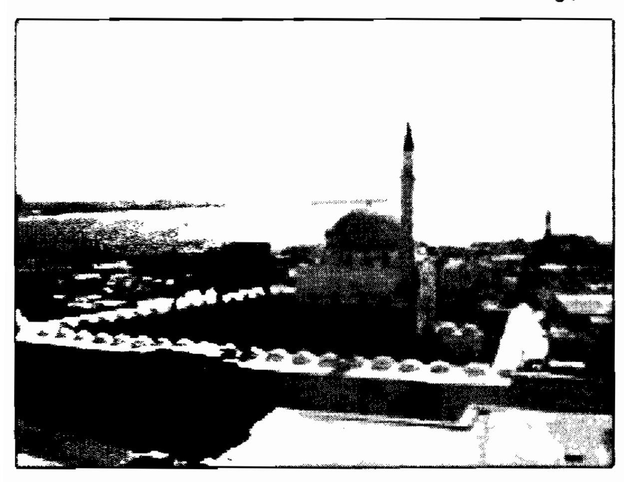
وفي ٢٥ رمضان ٦٥٨هـ/ ٣ أيلول (سبتمبر) ١٢٦٠م كانت معركة عين جالوت، وحلَّت أوَّل هزيمة بالتَّتار، وأوَّل توقُّف وتراجع لهم، حيث قُتِل كتبغانوين

قائد التَّتار، وانتصر جيش المماليك بقيادة الملك المظفَّر قُطُز والظَّاهر بيبرس.

تولَّى قلاوون بعد موت بيبرس أواخر المحرَّم ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م، وسار قلاوون على سيرة بيبرس في إتمام تحرير بلاد الشَّام، والقتال على جبهتَيْن؛ جبهة الصَّليبيِّين، وجبهة التَّتار، فحرَّر قلعة المرقب قرب جبلة على ساحل المتوسِّط عام ٦٨٤هـ/ ٢٥ أيَّار (مايو) ١٢٨٠م، وحرَّر اللَّاذقيَّة وميناءها في ٢٠ نيسان (أبريل) ١٢٨٧م، وحرَّر طرابلس عام ٦٨٨هـ/ ٢٠ نيسان (أبريل) ١٢٨٩، ولم يبق سوى تحرير عكَّا وبعض الجيوب.



طبرية



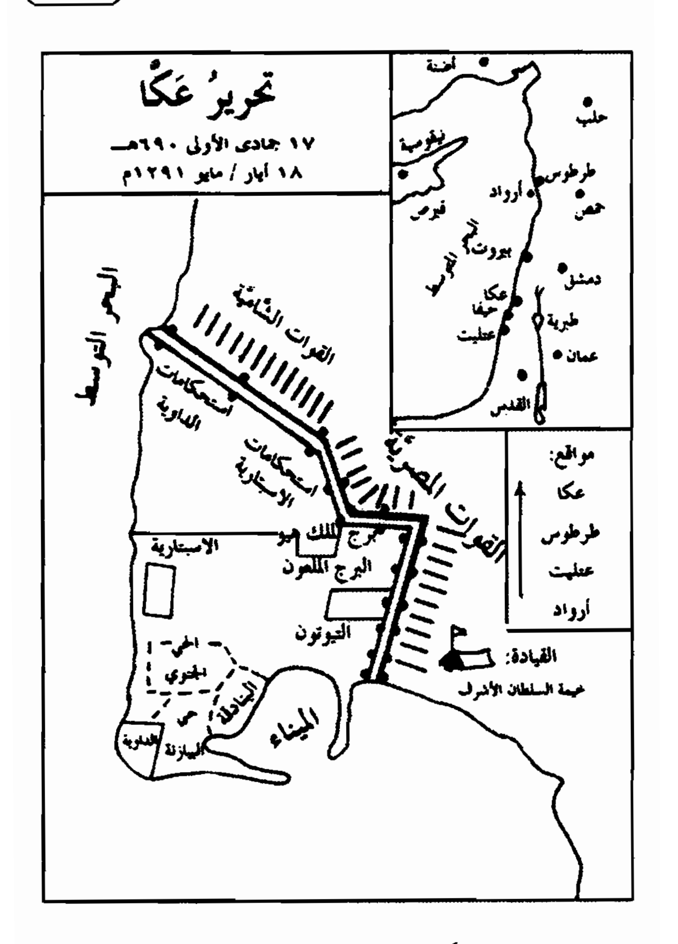
عكا (صور قديمة)

تحرير عكّا

جاءت بداية تحرير عكًّا حينما قتل الصَّليبيُّون فيها التُّجَّار المسلمين دون سبب. فلما سمع قلاوون بذلك، تأهَّب لتحريرها، فسار من القاهرة متَّجهاً إلى فلسطين، وبعد مرور أيَّام أصابته وعكة مات على أثرها في ٦ ذي القعدة ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م، فخلفه ابنه الأشرف خليل، الَّذي بدأ من حيث انتهى أَبوه، ووصل مشارف عكًّا الخميس ٣ ربيع الآخر ٦٩٠هـ/ ١٥ نيسان (أبريل) ١٢٩١م، مجهِّزاً المجانيق الَّتي قدمت من دمشق، ليحقِّق نصراً حاسماً على المدينة الحصينة، حيث إملريك القائد العام للقوَّات الصَّليبيَّة المدافعة عن عكًّا، وهو يعلم أنَّ المعركة معركة حياة أو موت، فهم بقايا الكيان الصَّليبي المتداعي[1]، وحاول هنري الثَّاني ملك إنكلترة الَّذي وصل من قبرص إلى عكًّا مع تعزيزات صليبيَّة التَّفاهم سلميّاً مع السُّلطان خليل بن قلاوون، ولكنَّ السُّلطان واجه الرُّسل قائلاً: «أَلم تحضروا معكم مفاتيح المدينة؟».

---

(١) الجبهة الإسلاميَّة في عصر الحروب الصَّليبيَّة ٣/ ٢٣١ - ٢٣٤.



دام حصار عكّا ٤٤ يوماً، حتى كان يوم الجمعة ١٧ جمادى الأولى حين أحدث مهندسو المسلمين

ثقوباً في سور المدينة، وانهار برج هيو، وأهم برج في السُّور (البرج الملعون)، ومع أصوات الطُّبول والموسيقا العسكريَّة العالية، دخل المسلمون بقيادة الأشرف خليل بن قلاوون عكًّا في ١٧ جمادى الأُولى ٦٩٠هـ/ ١٨ أيَّار (مايو) ١٢٩١م.

وكلَّف تحرير عكَّا جهوداً مضنية، بذلتها أجيال على مدى قرنَيْن من الزَّمان، فهو مفخرة كبيرة للسُّلطان المملوكي الأشرف خليل ابن المنصور قلاوون، وبقيت جيوب صغيرة لا بدَّ من تصفيتها، فحرِّرت صُور وصيدا في ١٤ تموز (يوليو) ١٢٩١م، وبيروت، وطرطوس، وعتليت، ولم يبقَ وجود للصَّليبيِّين على السَّاحل الشَّامي إلَّا جزيرة أرواد، الَّتي حُرِّرت عام ٧٠٢هـ/ ١٣٠٣م، فكُتِبَ السَّطر الأخير في قصَّة العدوان الغربي.

ثماني حملات صليبيَّة بالأمس، أخفقت وخابت.. وحملات اليوم إلى أرضنا المحتلة تجاوزت الثماني، أحدث الأسلحة الفتَّاكة المحرَّمة دوليّاً؛ تحمل بين آونة

وأُخرى بالسُّفن الأمريكيَّة والأُوربيَّة، كان آخرها خلال وبُعَيد حرب غزّة الأخيرة[١].

ولكن لابُدَّ للجسم الغريب أن يُقلع، فالجسم يلفظ الجسم الغريب الدَّخيل طبيعياً، قَصُرَ الزَّمان أَم طال.

وأخيراً.. علَّمنا تاريخنا بوقائعه الَّتي بين أيدينا أنَّ الانقسام الدَّاخلي يُطمع العدوَّ الخارجيَّ بالأُمَّة، ويؤدِّي إلى سهولة احتلالها، وأنَّ سلامة الجبهة الدَّاخليَّة واستمساكها وتلاحمها؛ قوَّة ودرع منيع لدحر العدوِّ، وتحرير البلاد.. فالعدل، والعلم، والمشافي، والجامعات، والخدمات.. تجعل الفرد مرتبطاً بأُمَّته، متلاحماً معها، يدافع عنها بإخلاص، ويموت من أجلها.

ومن متانة الجبهة الدَّاخليَّة التَّرفُّع عن كلِّ خلاف مذهبي أو طائفي أو ديني.. حتَّى كان الأخ المسيحي الشَّرقي يسعد حينما يحرِّر نور الدِّين، أو صلاح الدِّين

---

(١) في ٢٧/ ١٢ حتى ١٧/ ١/ ٢٠٠٩م.

بلدته، أو أرضه من أيدي الصَّليبيِّين الَّذين أذاقوه الويلات.

ولا بدَّ من وضوح الرُّؤية، والسَّير إلى الهدف المرسوم بخطوات سليمة علميَّة، فنور الدِّين على يقين، أنَّ ما رسمه للجبهة الدَّاخليَّة من خدمات وأمن وطمأنينة وعدل؛ قوَّةٌ هدفها الوصول إلى تحرير القدس الشَّريف، بدليل أمره بناء منبر المسجد الأقصى قبل تحرير القدس بأكثر من عشرين سنة، فالبشائر بين يديه، لسلامة الخطوات والمقصد، والسَّير بخطوات سليمة مدروسة.

أهم المصادر والمراجع

- الأعلام، خير الدِّين الزِّركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٦: ١٩٨٤م.

- الأيَّام الحاسمة في الحروب الصَّليبيَّة، بسام العسلي، دار النَّفائس، بيروت، ط١: ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

- الجبهة الإسلاميَّة في عصر الحروب الصَّليبيَّة، د. حامد غنيم أبو سعيد، دار الثَّقافة للطِّباعة والنَّشر، القاهرة، ط٢: ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

- الحركة الصَّليبيَّة، د. سعيد عبد الفتَّاح عاشور، مكتبة الأنجلو المصريَّة، ط١: ١٩٦٣م.

- الدَّعوة إلى الإسلام، السِّير توماس آرنولد، مكتبة الأنجلو المصريَّة، ط٢: ١٩٥٧م.

- القاموس الإسلامي، أحمد عطيَّة الله، مكتبة النَّهضة المصريَّة، القاهرة: ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م.
- كتاب الرَّوْضتَيْن في أخبار الدَّوْلتَيْن، شهاب الدِّين المقدسي (أبو شامة)، دار الجيل، بيروت (د. ت).
- كتاب السُّلوك لمعرفة دول الملوك، أحمد بن علي المقريزي، القاهرة: ١٩٥٦م.
- المظفَّر قُطُز ومعركة عين جالوت، بسام العسلي، دار النَّفائس، بيروت: ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
- معركة عين جالوت، د. محمد ضاهر وتر، ط١: ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
- النَّوادر السُّلطانيَّة والمحاسن اليوسفيَّة، أو سيرة صلاح الدِّين، بهاء الدِّين أبو المحاسن يوسف بن شدَّاد، (تراثنا)، تحقيق د. جمال الدِّين الشَّيَّال، الدَّار المصريَّة للتَّأليف والتَّرجمة، ط١: ١٩٦٤م.

مستخلص

كتيب أوجز أحداث الحروب الصليبية على ساحل بلاد الشام وما جرى فيها من تهديد لأخطر بقعة في العالم الإسلامي حتى تم تحريرها.

أعطى الكتيب فكرة عن أسباب قيام الحروب الصليبية، ومجريات الأحداث بين السلاجقة والروم البيزنطيين الذين رأتهم أوربة عاجزين عن حماية المسيحية في الشرق.

أشار المؤلف إلى الحملات الصليبية المشهورة فقط، وهي ثمانية، بدءاً بالحملة الأولى عام ١٠٩٥م بقيادة بطرس الناسك، ثم الحملة الثانية عام ١١٤٧م بقيادة إمبراطورية ألمانية وملك فرنسة، فالثالثة عام ١١٨٩م بقيادة إمبراطور ألمانية، فالرابعة عام ١١٩٨م بقيادة البابا أنوسنت الثالث، فالخامسة على مصر عام ١٢١٨م بقيادة جنادين برين وخرجت من عكا بنية غزو الكعبة لهدمها، فالسادس عام ١٢١٥م بقيادة فردريك الثاني، فالسابعة على مصر عام ١٢٤٨م — ١٢٤٩م بقيادة لويس التاسع ملك فرنسة، فالحملة الثامنة الأخيرة سنة ١٢٧٠م بقيادة لويس التاسع أيضاً، وختم المؤلف بحثه بالحديث عن تحرير عكا ونهاية الصليبيين. وذيل الكتاب بالمصادر والمراجع.

JERUSALEM IS
THE RESPONSIBILITY OF A GENERATION

CRUSADES

Causes, Events and Conclusion

Al-Ḥurūb al-Ṣalībīyah

Asbābuḥā, Ahdāthuhā, Nihāyatuhā

Dr. Shawqī Abū Khalīl

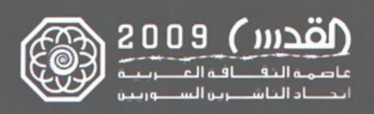
تبقى الحروب الصليبية في حملاتها الثماني المشهورة ذكرى في تاريخ هذه الأمة التي توحدت إبانها ضد العدوان، وقدمت أفدح التضحيات .

هذا الكتيب يلخص حملاتها تلخيصاً مركزاً متسلسلا بأحداثها الزمنية ليعطي فكرة واضحة عن أطماع الغرب بالشرق تحت ستار الدين.. والمسيح عليه السلام منهم براء بتعاليمه السمحة، ونبوته المقدسة، وسيرته العطرة .

وإذا انتهت الحروب الصليبية قديما عام ١٢٩١م فإن الغرب لم تتوقف أطماعه أبداً . فعاد إلى الشرق بالاستعمار.. ثم ها هو ذا اليوم يواصل حملاته ومعها أسلحة محرمة دوليا!

ولن يفلح الباطل أبدا .

Design Behzad Ali Issa




ISBN 978-9933-10-090-2